أسبوع فى سبتمانيا

من ذكريات العرب والاسلام فى غاليس

للاستاذ محمد عبد الله عنان

فى أحد أبهـاء قصر فرساى مجموعة من الصور الرائعة تمثل مناظر من الوقائع الحربية الشهيرة التى انتصر فيها ملوك فرنسا ؛ وبين هذه المجموعة صورة لموقعة بلاط الشهداء التى نشبت بين العرب والفرنج على ضفاف اللوار فى سنة ٧٣٢ م ، يبدو فيهـا عبد الرحمن الغافق أمير الأندلس ، وقائد الجيش الاسلامى ، شيخاً رائعاً ذا لحية طويلة بيضاء ، وهو شاهر سيفه ، ومن حوله بعض جنوده قتلى ، وأمامه جنود الفرنج يكرون على خصومهم بشدة ، وتبدو عليهم أمارات التفوق والنصر

وهذه الصورة إحدى الذكريات القليلة التى تحتفظ بها فرنسا عن عصر يكاد يمحوه النسيان من صحف تاريخها ، ونحن نعرف ماذا كان من أمر العرب فى بلاط الشهداء ، فقـد قتل قائدهم عبد الرحمن خلال الموقعة ، ثم ارتدوا فى ظلام الليل إلى الجنوب ؛ وغنم الفرنج الموقعـة ، واقترنت ذكرى النصر إلى الأبد باسم قائدهم وزعيمهم كارل مارتل ، واعتبرته التواريخ النصرانية منقذ أوربا والنصرانية من الاسلام وسلطانه وتعاليمه

بيد أن ذكرى هـذا النصر الفرنجى لا يمكن أن تحجب ذكريات عصر قصير باهر قضاه العرب فى جنوب فرنسا ، فقد افتتح المسلمون ولايات فرنسا الجنوبيـة فى أوائل القرن الثامن واستقروا فى سبتمانيا زهاء نصف قرن ؛ ثم عادوا فى أوائل القرن العاشر جماعات مغامرة مجاهدة واحتلوا كثيراً من أنحاء بروفانس والرفييرا ، واستعمروها زهاء قرن ، وتركوا كثيراً من آثارهم وذكرياتهم المعنوية فى تلك الأنحاء

ولـكن الأوربى ، والفرنسى بنوع خاص ، قلما يذكر هذا الفصل من تاريخ العرب والاسـلام فى أوربا ؛ وإذا كان بعض الباحثين والمؤرخين الاخصائيين يعرضون إليه فى كتبهم ، فان التواريخ الغربية العامة تمر عليه غالباً بالصمت ، أو تذكره عرضاً كحادث طارىء طوى صفحته تعاقب الأحقاب ؛ وإذا قصصت على الفرنسى المثقف شيئاً من تفاصيل هذه الغزوات الاسـلامية لجنوب فرنسا ، وذكرت له أن العرب قد انتهوا فى فتوحاتهم إلى أعالى نهر الرون ، وأنهم اسـتولوا على بيزانصون مسقط رأس شاعرهم فـكتور هوجو ، وعلى ليون وماسون وصانص ، وأنهم احتلوا الأنجدول وبروفانس دهراً ، وأن قواعد سبتمانيا مثـل أربونه وأجده ومجلونه وقرقشونه ، مازالت تسمى بأسمائها العربية محرفة إلى الفرنسية : إذا ذكرت للفرنسى المثقف شيئاً من ذلك أصغى إليك بمنتهى الدهشة وكأنما يصغى الى قصة خرافية يطبعها الخيال المغرق

* * *

ولقد أتيح لى أن أقضى أسـبوعاً فى هاتيك الربوع التى خفقت عليها الأعلام العربية حقبة من الدهر . أجل ، خطر لى أن أجوز إلى سبتمانيا القديمة ، وأن أشاهد قواعدها التى مازالت أسماؤها تنم عن ذكرياتها العربية . ولقد كانت سبتمانيا — وهو اسمها القديم ومعناه ذات المدن السبعة — أو لا نجدولا الحديثة ، أول أرض فرنجية غزاها العرب عقب افتتاح الأندلس ، واتخذوها قاعدة لغزواتهم فى جنوب فرنسا ، وجعلوها ولاية أندلسية سميت بالثغر (La Marche) أو الرباط لوقوعها على ساحل البحر الأحمر ؛ وكانت مدن سبتمانيا السبعة : أرله ، وأربونه ، ونيمه ، وقرقشونه ، وبيزيه ، وأجـده ، ومجلونه . وكانت أربونه عاصمتها ، وكانت أمنع المعاقل العربية فى غاليس (جنوب فرنسا) . ولما وقعت الحرب الأهلية فى الأندلس ، عند ما أشرفت الخلافة الأموية على نهايتها ، كانت أربونة قاعدة المعارضة لحـكومة قرطبة ، وكانت منزل الحركة التى قام بها حاكمها عبـد الرحمن اللخمى « أشجع فرسان الأندلس » لانتزاع إمارة الأندلس ؛ ولما اضطربت أحوال الأندلس الداخليـة ، انتهز الفرنج الفرصة لاسترداد سبتمانيا ، وكانت أربونه آخر معقل عربى وقف فى وجه الفرنج ، ولم تسقط إلا بعد دفاع مجيد سـجلته الروايات المعاصرة ، وكان ذلك فى منتصف القرن الثامن الميلادى (سنة ٧٥٨ م)

تلك هى خلاصة المأساة العربية فى سبتمانيا . أجل كان العرب سادة فى هاتيك الربوع منذ ألف ومائتى عام ؛ ولـكن سبتمانيا

لا تحمل اليوم أقل أثر مادى من طابعها العربى القديم . بيد أنه مما يلفت نظر السائح المتجول أن اسم « حى العرب » أو « شارع العرب » يطلق على كثير من الأنحاء فى مدن الرفيرا وسبتمانيا ؛ وهذا يرجع بلا ريب إلى وجود الذكريات العربيـة ؛ وقد توجد أيضاً أطلال دارسة لبعض الحصون العربية ، ولـكنها مما يصعب تعيينه وتحقيقه

على أنه توجد ثمـة آثار معنوية كثيرة من العهد العربى فى الحياة الاجتماعية فى تلك المنطقة ، وبخاصة فى بروفانس حيث تأثر التفكير والآداب عصراً بالمؤثرات والأساليب العربية ، وحيث طبع المستعمرون المسلمون فى القرن العاشر حياة هذا الاقليم بطابع من عاداتهم وتقاليدهم . وقد كانت هذه الحقائق التاريخية موضع عناية بعض الباحثين فى القرن الماضى فتناولوها بالشرح والاستقصاء ، وكانت مباحثهم فتحاً جديداً فى هـذا الميدان ؛ ونستطيع أن نخص بالذكر منهم العلامة المستشرق رينو ، فقد كتب عدة فصول بديعة فى كتابه « غزوات العرب فى فرنسا » Hist. des Invasions des Sarazins en France عن الآثار الفكرية والاجتماعية فى جنوب فرنسا وبخاصة فى بروفانس

ولقد اخترقتُ سبتمانيا من آرله Arles حتى جبال البرنيه ؛ ووقفت مدى حين فى مدينة أربونه Narbonne . وقد أذكى خيالى حين شهدت عاصمة الرباط الأندلسى القديم ، تلك الذكريات العربية البعيدة التى تفيض فى عالم القرون والتى لم أجد لهـا أثراً فى المدينة الفرنسية الحديثة . وحينما وقفت فى « بربنيان » تذكرت أنها كانت مجاز الجيوش الأندلسية إلى غاليس ، وأن عرب الأندلس كانوا يفضلون اجتياز جبال البرنيه من الناحية الشرقية من ممر بربنيان ، مخترقين قطلونية إلى « الثغر » ثم يتجهون بعد ذلك شمالاً إلى أقاليم الرون ، أو غرباً نحو « اكوتين » ؛ بيد أنه توجد إلى جانب ممر بربنيان ممرات أخرى كان يتدفق منها عرب الأندلس إلى جنوب فرنسا ، وأشهرها ممر « رونشفال » الشهير الذى يسميه الادريسى « باب الشرى » . ولرونشفال ذكرى خالدة فى التاريخ والقصص الفرنسيين ، فقد كانت مسرحاً للوقعة الشهيرة التى مزق فيها العرب جيش كارل الأكبر (شارلمان) حين عوده من غزوته لأسبانيا الشمالية ، التى نظم فيها رولان وصيف شارلمان أنشودته الشهيرة Chanson de Roland

وإن السائح المتجول ليتساءل حين يتأمل تلك الوهاد كيف استطاع العرب الذين برزوا من بسيط الصحراء إلى الغزو أن يجتاحوا تلك الهضاب الوعرة ، وأن يحرزوا النصر الباهر فى هاتيك السهول النائية على حين أن أعداءهم أعرف بطبائعها وجنباتها . ولقد كان اجتياز جبال البرنيه الشاهقة أعجوبة فى التاريخ القديم ، ولـكن العرب اجتازوا تلك الربى الهـائلة واقتحموها مراراً فى سبيل الفتح . ولقد خالجنى مثل هذا الشعور حينما اجتزت صحراء العرب منذ بضعة أعوام ، وأذكى القفر الشاسع خيالى ، فتساءلت كيف استطاعت الجيوش العربية الزاخرة أن تجتاح هـذا القفر الرائع فى عصر كان التنقل فيـه محفوفاً بأعظم المشاق ؟ وكيف كانت هذه الجيوش تمون نفسها بالزاد والماء خلال أسابيع طويلة تستقبل فيها الشمس المحرقة والرياح السافية ؟ أجل لقد كان اجتياز الجيوش الاسـلامية فى مختلف العصور لصحراء العرب وصحارى الشام وشمال افريقية أعجوبة من أعاجيب العصر ، بل إن اجتياز هـذه الصحارى فى عصرنا يعتبر عملاً من أعظم الأعمال الحربية

ولقد ذكرت بهذه المناسبة ملاحظة غريبة أبداها المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عن خواص الفتح العربى ، فقد عقد فى مقدمته فصلاً ذهب فيه إلى « أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط » وأورد كعادته أمثلة وأسباباً ، ولـكنى أعتقد أن ابن خلدون غير محق فى ملاحظته ؛ ويكفى أن نذكر أن العرب افتتحوا هضاب فارس وأرمينية والأناضول والقوقاز ، وافتتحوا أسبانيا وتغلبوا على وعرها بأيسر أمر ، ثم اقتحموا جبال البرنيه الشاهقة إلى فرنسا وافتتحوا ما وراءها من الهضاب والسهول ؛ ولم تكن هذه كلها من البسائط التى يعنيها ابن خلدون

* * *

هذه خواطر أثارتها فى نفسى زيارتى لسبتمانيا أو الرباط الأندلسى القديم ؛ ولقد قضيت فى تلك الربوع أياماً ؛ وكنت كلما وقفت بأحد هـذه المعاهد القديمة ارتد خيالى إلى ما قبل ألف ومائتى عام وتصورت العصر الاسلامى كله ماثلا أمام عينى بحوادثه ووقائعه الحافلة ، ومرت بذاكرتى أسماء عربية رنانة روت بدمائها تلك